

## التفاعل المنطقي بين النظام الصوتي و الدرس النحوي في القرآن الكريم

د. عبد القادر بن فطة

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر- الجزائر

## الملخص:

اهتم العلماء بلغة القرآن لما فيها من وقع سمعي وأثر صوتي في تحسين اللفظ وتأكيد المعنى، فهي تعطي النص تماسكا وقوة. وجدوا فيها وسيلة لتأصيل النظام اللغوي خاصة التناسق المنطقي بين مستوياته ومنها الصوتي والنحوي الذي يرد في النص لدوافع سياقية وللتنوع في أساليب التعبير، زاخرا بالمعاني النفسية يحمل أسراراً جمالية. إنّه من أعمق الظواهر اللغوية في النص القرآني يؤدي دوراً لغوياً متميزاً، له تأثير واضح في إسقاط الزيادة، يحقق الانسجام الذي يستريح له ذوق المتلقي. فتفاعل المستويين يختلف من مقام إلى آخر ويخضع لطبيعة الأغراض، ويتسم بطابع التحدي المثير للعرب، وتكمن أهميته في التعبير عن الموضوع بأسلوب معجز. وعليه يمكن طرح السؤال التالي: ما هي طبيعة هذا التفاعل المنطقي بين هذين الحقلين؟

الكلمات المفتاحية: التفاعل المنطقي، النظام الصوتي، الدرس النحوي، الإعجاز اللغوي.

**Abstract**

Scholars are interested in the language of Koran because of its acoustic effect and phonetic impact to improve articulation and confirm meaning, it gives text cohesion and strength. They found in it a way to establish the origin of the linguistic system especially the logical coordination between its levels, including the phonetic and grammatical ones which are set forth in the text for contextual and methods' expression variation, flowing with psychological senses and carrying aesthetic secrets. They are among the deeper linguistic phenomena in Koran, perform a distinct linguistic role and have a clear influence in dropping addition and making harmony that comforts the recipient. The interaction of the two levels varies from one context to another, and is subjected to the nature of purposes. Besides, it is characterized by the attribute of challenge that excites the Arabs, with its importance in the expression of the subject in a wondrous manner.

Keywords: the logical interaction, the vocal system, the grammatical study, the linguistic inimitability.

## المقال:

إنّ لغة القرآن بدأت تفرض نفسها حين اقترب العلماء من القرآن الكريم، وأدركوا إعجازه. فقد استخلصوا كمّاً هائلاً من مظاهره اللغوية، فقرأها كلّ حسب تخصصه بدءاً بالخليل،

وتوصّلوا إلى أهميتها في التفريق بين صنوف الكلام. وقد استثمرها القراء والنحاة في تعزيز مذهبهم دعموا المستويات اللغوية خاصة الصوتي والنحوي، فاستبانوا خصائصهما ما جعل أهل اللغة يقتنعون بأنّ الصوت والنحو ليسا من الموروث الجاهلي لأنّ القرآن انفرد بنظام الصوتي بديع وصيغ النحوية متميّزة، فبدءوا بدراسة التفرد الذي تميّز به التعبير القرآني، ففتحو المجال لغيرهم للبحث فيه، وكانت النتيجة التي خلصوا إليها أنّ هناك تفاعلاً منطقياً بين الصوت والنحو ويقصد بهذا التفاعل التأثير المتبادل بين العلمين، لكل منها خصائص وتراكيب وصفات مفيدة. ونتيجة للاتصال المباشر والتأثير المتبادل بينهما يتم الحصول على ناتج للتفاعل يمثل مركباً له من الخصائص والسمات ما يجعله مختلفاً عن العناصر المتفاعلة. منها الاتساق الداخلي للأفكار فيما بينها وعدم تعارضها، وذلك عن طريق التحليل فينتقل من الفكرة الكلية إلى الأفكار الفرعية في نمط محكم، ثمّ التركيب ويكون بتجميع أجزاء الفكرة في تنظيم جديد ذي معنى يدرك العلاقات بين جوانب الموضوع، وأنه قادر على تدعيم الأفكار، عن طريق الأدلة والبراهين المتاحة (إنّ النحو الذي يعنى بدراسة التركيب لا بد أن يستند إلى التأليف الصوتي) 1.

أما حديثاً فالدراسات وقفت عند هذه القضية ولم يمنع أهل اللغة من العودة إلى التراث لقراءته ووعي مضمونه كصبي صالح ومحمد حماسة الذين اقتنعوا بأنّ البحث الصوتي والنحوي عند السابقين قد نشأ في ظل القرآن الكريم وحذوا حذو القدامى متعصبين للأصول اللغوية القديمة انطلاقاً من النص القرآني، وما أنتجته قرائح العرب فعملوا على مقارنة المستويين وبالمقابل هناك من أثر ما وصل إليه الغرب في دراساتهم اللغوية فكانت قراءتهم لهذه المسألة بمفاتيح غريبة معاصرة كتمام حسان وإبراهيم أنيس متأثرين بعلمائهم من أمثال دي سوسور وشومسكي.

إنّ الحديث على مسألة الصوت والنحو هو حديث عن درسين لغويين الذي يلزم الاشتغال على النص القرآني باحثين عن صور تساوقهما وتلاحمها؛ أي تلك السبل التي تكسب النص قيمة جمالية وتركيبية تستميل ذوق المتلقي وتجعله يتجاوب مع النص.

### علاقة الصوت بالنحو

القرآن الكريم علم وبيان شكّل بؤرة اهتمام العلماء المسلمين، - كلّ في مجال اهتمامه - بحثاً وتأملًا. فظهرت نتيجة ذلك علومٌ كثيرةٌ، ارتبطت بالقرآن الكريم كعلوم القرآن، وعلوم اللغة. كل علم من هذه العلوم ركّز على جانب معيّن من جوانب هذا الكتاب العظيم، فالبلغة تهتمّ ببيان الذوق و سحر التعبير الوارد فيه، و الصرف يبين عن تنوع هيئة الكلمة، والتفسير يهتمّ بإظهار معانيه..

ولكنّ العلم الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن، ووضع لأجله، قاصراً طرفه عليه، علم الأصوات (كانت الفرصة مواتية لرجال القراءة والإقراء، فجددوا واجتهدوا في دراسة الأصوات

بتجميع ما تناثر من أفكار سابقهم من أهل الصناعة، بالإضافة إليها والتوسيع في جوانبها، حتى استقام لهم بناء متكامل في الدرس الصوتي المكرس في الأساس في خدمة القرآن<sup>2</sup> تحسين القراءة، وذلك بإعطاء كل جملة نصيها من السياق، وكل كلمة حقها في النطق، وكل حرف من حروفه ما يستحقه من مخرجه وصفته اللازمة له.

لقد مثل هذا العلم وصفاً دقيقاً لتلك الأحكام والقواعد التي يجب اتباعها عند قراءة هذا النص القرآني، وغيرها من الأحكام المتعلقة بأصوات القرآن الكريم وحروفه، هذه الأحكام والقواعد تصف لنا كيف نقرأ كتاب ربنا كما أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قرأه صلى الله عليه وسلم على صحابته الكرام، وكما أقرأه أصحابه الكرام لتابعهم إلى أن وصل إلينا محفوظاً بالسند الصحيح مبرأ من كل عيب ولحن.

ومن هنا يمكننا القول بأن الصوت القرآني قد وجد حظّه من الاهتمام، متمثلاً في هذا التراث الضخم الذي بين أيدينا من مؤلفات علم التجويد ومدوناته. والذي استمال العلماء إلى الصوت القرآني اتساق التراكيب النحوية التي ارتبطت بالإعجاز اللغوي قال فخر الدين الرازي (إن أكثر لطائف القرآن الكريم مودعة في الترتيبات والروابط)<sup>3</sup> وانتشر استعمالها وتقدمت في النطق السليم مع القرآن الكريم وتعدد القراءات القرآنية المتواترة، فتمكنت من التوغّل في الدرس الصوتي، وأن تأخذ مكانها. ونشأ من استيلائها على الاستعمال اهتمام علماء اللغة فأصبحت مادة هامة اكتنفت بطون المؤلفات والمصنفات، واستثمرها اللغويون في ترسيخها، وأكثرها من جذورها وصيغها ليتصل النظام الصوتي بالدرس النحوي فيتعاظم شأنهما لتصبح السلطة اللغوية لهما.

فالدرس الصوتي في القرآن مشحون بالمعاني ذات القيم الجمالية المبنية على معايير تعرضها آليات اللغة عن طريق وصف واسع لها تعطيها دلالات المرادة المفردة منها والمركبة، والدرس النحوي يتعامل مع هذه المعايير بذكر جذوره وإيحائها وصيغها، وهذا مظهر من مظاهر التفاعل المنطقي بين الصوت والنحو الذي كان يجري على ألسنة العرب. وكان القرآن الكريم أعلى مراتب الكلام، خصّه الله بخصائص جعلته متفرداً محتوي العلاقات بين المستويات اللغوية ومنها العلاقة التي تربط بين هذين العلمين.

اهتمّ علماء العربية قديماً بالبحث الصوتي في إطار الحقل اللغوي خاصة اللفظ والتركيب فاللفظ يتكوّن من مادة تتكفّل بالأصوات اللغوية، ومن هيئة تحدّد شكله وتبرز تصنيفه، أمّا التركيب الذي يدرس على المستوى اللغوي يعتمد على مراعاة الأصوات. ولم يهمل أهل اللغة الحقائق الصوتية بل وقفوا عندها ليستخرجوا نظاماً لغوياً موحداً.

بدأت الدراسات الصوتية عند علماء العرب بعمل الخليل<sup>170</sup>هـ (فلم أجد نحوياً ممن النحاة الأولين أحسن بضرورة الدراسة الصوتية لفهم الأسرار غير الخليل بن أحمد وأقواله فيما أملاه على

سيبويه و أملاه على الليث بن المظفر ونقله اللغويون عنه كالأزهري في كتاب تهذيب اللغة، و ابن دريد في كتابه الجهمرة على أن له فكرة تحمل الخطوط الكبرى لهذه الدراسة) 4 ولم تكن اللغة العربية عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات الدراسة الصوتية. فقد قدّموا تصورا سليما للمستوى النحوي و علاقته بالأصوات، و لم يغيب عنهم الفرق بين الظواهر الصوتية. فكان هناك اتجاه واضح في فهم طبيعة هذه العلاقة، و نظروا إلى تمثيل الجوانب الصوتية في الحقل النحوي.

و لم يكن التشابه أو الاختلاف بين قراءة القرآن عائقا، بل إن عملية استخلاص التأليف الصوتي التي خصّها النحاة كانت تركيبية عميقة (فالمستوى الصوتي في دراسة التركيب تقع في مقدمة النحو، و تظلّ في دراسة النحو حاجة إليه) 5 فقد تمكّن النحاة أن يبيّنوا مخارج الأصوات و صفاتها، و يدقّقوا في وصفها بواسطة إدراكهم و استنباطهم لهذا النظام الصوتي .

فقد التفت التغييرات الصوتية بالمستوى النحوي في النص القرآني فوثّق سلامته و أمنه من اللحن. فوجدت الدراسة النحوية في إطارها الصوتي في القرآن الكريم مادة لغوية ثرية و هذا لتأصيل البحث الصوتي الذي حفل لدى القدامى بقراءة معمّقة خاصة الخليل الذي كان رائدا لهذه الدراسات فقد عرض لها في مقدّمة كتابه (العين)، و عرف قيمة الدراسة الصوتية للوقوف على حقائق اللغة العربية. فقد جاء كتابه محتويا على مسائل نحوية و قضايا صوتية مرتبطة باللفظ المفرد. كذلك عند سيبويه الذي تناول أهم القضايا الصوتية في التراث اللغوي أدركاهمية الارتباط بين هذين المستويين (إنّ سيبويه كان على وعي تام بأن النظام الصوتي مقدّمة لا بد منها لدراسة اللغة). 6

و بالمقابل نجد الفراء 207هـ في كتابه معاني القرآن يتجاوز الكلام عن الظواهر الجزئية في إرساء القواعد الكلية في دراسة التركيب اللغوي، و يذلل ما صعب من مسائل النحو، و يبيّن جوانب مهمة في دراسة اللغة. و قد استثمرها الفراء في اختلاف القراءات القرآنية و طبقها عليها لضبط القواعد النحوية مراعاة للتغييرات الصوتية. و لعلّ العودة إلى القوانين الصوتية للاسترشاد بها في تحليل بعض المسائل النحوية تفاعل مع بعض القراءات المتواترة، و من ثمّ تنوّع الأداء القرآني، و تغيّر الإيقاع للفظ، و استجابة للسياق الذي وردت فيه القراءة.

كما تجلّت علاقة المنهج الصوتي بالنحو في ظاهرة الإتياع الذي ألفه القدامى في تأليف الكلمة انطلاقا من الذوق في تجاور الحروف أو تباعدها (فالإتياع ظاهرة صوتية توجهها دواعي المماثلة وهي أنّ الأصوات اللغوية يتأثر قرنها في الصفات أو المخارج) 7 و قد اشترط النحاة فيه شرط المجاورة ليتحقّق تأثر الصوت بالمجاورة (فإعراب المجاورة كما في جحر ضب خرب حيث يتّضح المعنى بقرينة معنوية هي قرينة الصلاحية للإسناد و عدمها) 8

و الإتياع يحقّق الانسجام الصوتي حين تتابع الحركات التي يحتاجها لنطق طلبا للخفة، وهي

ظاهرة كانت شائعة عند أهل البادية. فالإتباع تكون فيه الحركات الإعرابية مؤثرة وهذا ما تنبّه إليه اللغويون القدامى لأنّه يمثّل تطورا في حركات الكلمة (فالكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في طورها إلى الانسجام بين هذه الحركات ، حتى لا ينتقل اللسان من ضمّ إلى كسر إلى فتح في الحركات المتواليّة)9 ويبدو أنّ الإتباع أو التوافق لم يكن شائعا عند كلّ العرب بل في بعض اللهجات التي تميل إلى التوافق بين الحركات، وهذا وفقا للحركة الأصلية في الكلمة حتى تؤثر في الحركة التي تليها لتنتقلها إلى جنسها وقبيلة تميم كانت تؤثر الكسرة في قوّة تأثيرها في الضمّ والفتح.

وقد عالج اللغويون الأوائل هذه الظاهرة لكنهم اختلفوا في تحديد المصطلح، فسيبويه قد ضمّن أبنية الأسماء (وأما الدين قالوا مغيرة ، ومعين فليس على هذا ولكنهم اتبعوا الكسرة الكسرة ، ما قالوا: منتن وأنبؤك وأجوءك، يريد أجيتك وأنبتك)10

أما ابن عيش643هـ فعده ضريبا من التشاكل (كان عاصم يفرط في الفتح وحمزة يفرط في الكسر وأحسن ذلك ما كان بين الكسر المفرط والفتح المفرط والغرض من الإمالة تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل)11 واهتمام السابقين بالإتباع لأنه يساهم في الأداء اللغوي لبعض الأصوات في الكلام العربي الذي يحافظ على الانسجام الصوتي ، و الخفة في النطق.

إنّ فكرة العلاقة بين الصوت والنحو بحث فيها القدامى، وتعمّقوا في مباحثها لارتباطها بالنص القرآني، ووقفوا على مواطن الإعجاز، كذلك التصدي لظاهرة اللحن. أمّا حديثا فقد ازداد الاهتمام بها لقوة الصلة بينهما فلا قيمة للصوت لم يجربه الاستعمال النحوي، ولا مدلول لنحو إذا لم يقترن بالنظام الصوتي. إنّ العلاقة بين الصوت والنحو شغلت الفكر اللغوي الحديث فاجتهد أصحابه في بيان رأيهم فيها ، فدقّقوا النظر في أقوال القدامى فمنهم من أخذ برأيهم وتأثر به ، وتبنّى فكرة الصلة الطبيعية بينهم وأنّ رفضها ضرب من المستحيل فكتبوا كتباً أثبتوا فيها هذه العلاقة ، و تمسّكوا بما ذهب إليه السلف في هذه المسألة، وكان اتّصالهم بالمنهج العربي القديم وثيقا منهم الحاج عبد الرحمن صالح الجزائري رضي بجهود السلف ، وما توصّلوا إليه من نتائج علمية حذا حذوهم في معظم آرائهم اللغوية . فقد أعاد البحث في الموضوعات التي أفاضوا فيها ، لكنّه تعمّق وأعمل عقله فناقشها مناقشة دقيقة جمع بين الإبداع والتقليد. وتوصّل إلى أنّ العرب اجتهدوا في المجالات اللغوية فدراسة علمائنا للمستويات اللغوية لا يضاهاها في العمق والدقة الدراسات التي يقوم بها اللغويون ودافع عن آرائهم في مسألة الصوت والنحو وخاصة النظرية الخليلية، فأعجب بها فهو يرى ما لاحظته علماءنا من مناسبة التلوينات الصوتية ودرس النحوي أنّ له قيمة تعبيرية موحية. كذلك محمد حماسة الذي كان مهتما بهذه المسألة وقد قدّم آراءه فيها ويتّضح ذلك في كتابيه (اللغة العربية معناها ومبناها) فقد تعمّق في فكرة الصلة الطبيعية بين الصوت والنحو أثبت أنّ هذا التقارب لم يكن عبثا بل هو دلالة قوية (يتوقف إعراب نص ما على وظائف الأصوات ووظائف

المباني ووظائف القرائن ونظام العلاقات فلا يفصل في الذهن بين كل ذلك إلا لأغراض التحليل اللغوي)12.

إنّ الناظر في هذه العلاقة بمختلف إحدائياتها وتنوع تعرجاتها ليلحظ مدى تنوعها، و سيلحظ أيضاً منهجية مضبوطة وواضحة المعالم يمكن أن يعتمدها القارئ، ويركن إليها عند النماذج القرآنية. وبما أنّ النص يشكل فسحة رحبة يلتحم فيه هذا التفاعل، وتلتئم فيها المقاصد في إطار التواصل الفعال.

### الصوت و النحوي في ضوء نماذج قرآنية

تناول القراء في قراءاتهم جوانب متعددة للظواهر النحوية لها ارتباط بالمستوى الصوتي، فالتمسوا تلك القوة التي تتّصف بها الكلمة أو الجملة في التأليف الصوتي، ونظام التوزيع في الجملة، والتركيب المفيد الذي يحتويه الكلام (وهناك بعض الظواهر الصوتية العامة التي يمكن الاعتماد عليها في توجيه الإعراب كذلك، من ذلك ما نطلق عليه الفواصل الصوتية أو ما يمكن أن يشار إليه بالوقفات والسكتات)13

فعند قوله تعالى: (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الأنبياء14 (قرأ الجمهور قل بصيغة الأمر، وقرأ حمزة و الكسائي وحفص وخلف قال بصيغة الماضي)1 فالتنعيم يلائم صيغة الأمر لأنّ السياق يقتضي ذلك، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر الكفار بإحاطته التامة بعلمه.

فالقراءة بالأمر ذات قيمة تنغيمية تختلف عن القراءة لو كانت بالأسلوب الإخباري، ولهذا المقدار النغمي الذي يميّز الأمر ويتناسب مع الأهمية التي تضمنتها الكلمة. فقد استوعب السياق القرآني الطريقة التعبيرية التي تمّ بها بواسطة هذا الفونيم فوق التركيبي.

كما تظهر علاقة النداء بالصوت، وهذا يعكس شعورا داخليا يترجم في نغمات صوتية، ما جعله يخرج إلى معان أخرى التي تفهم من القرائن بفضل التنعيم. فهناك نماذج قرآنية استعملت تماشياً مع التغيرات التي يعكسها صدى النص، فعند قوله تعالى: (وَإِزْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة 286 كلمة (مولانا) تحمل معنى النداء وإدراكه يكون فقط بالأداء الصوتي، فليس هناك دليل يوجي إلى هذا الأسلوب.

كذلك عند قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) يوسف 29 النص يحتوي مقطعين الأول يتعلق بيوسف عليه السلام والثاني بامرأة العزيز. فالخطاب الأول يظهر خاليامن أداة النداء، ولكن التنعيم هو الذي دلّ عليه (يا يوسف) فهو يتضمّن معاني الاستئناس والتحييب.

و عند قوله تعالى: (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَقَا عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) يوسف 84 أسلوب النداء بصيغة الندبة لتنبيه السامع إلى ألم يعقوب وتفجعه لفقدان ابنه والأصل (يا أسفي الألف مبدلة من ياء المتكلم، والأصل أسفي، ففتحت الفاء وصيرت الياء ألفا ليكون الصوت بها أتم).15

ومن الأساليب التي برزت فيها هذه الظاهرة صيغة التعجب، في القرآن آيات ورد فيها هذا الأسلوب لاحظه القراء خاصة في مواطن تعظيم الأمر الذي يستميل عقل المتلقي، والذي يجلبه الصوت بإعطاء المعنى الخفي أهميته في الكلام.

فعند قوله تعالى: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) الكهف 6 الآية فيها معنى التعجب في قوله (كبرت كلمة) فالتلون الصوتي هو الذي أبان عن هذه الصيغة (و في ذلك معنى التعجب: أي ما أكبرها كلمة)16 و التعجب هنا قول الكفار بأن الملائكة بنات الله رغم الأدلة الداعية إلى الهداية فهذا أمر ينشئ التعجب لأن الكلمة مبنية على أساس أسلوب التعجب.

ومن أبنية التعجب التي عمل الصوت على إظهارها عن طريق الأداء السليم في القرآن الكريم قوله تعالى: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ) مريم 38 فالتعجب صيغتان قياسيتان أفعل به التي ورد الفعلان (أسمع وأبصر)عليها، وما أفعل. وقد تحمل الكلمتان معنى ما أسمعهم وأبصرهم .

وعند قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) البقرة 175 فالتعجب يعود على المخلوقين كيف يصبرون على مكثهم في النار. فقراءة (ما أصبرهم) بالفونيم الثانوي يفصح عن أسلوب التعجب الموجود في هذه الكلمة ما دامت قد جاءت على صيغة ما أفعل.

ما يلاحظ على هذه الآيات أنّ المستوى الصوتي محور أساسي في تحديد نغمة التعجب من خلال الكلام المنطوق. فهو الذي أظهر التركيب التي يحتوي على هذه الصيغة وعدمها. فالقارئ يتذوق النص، ويعرف نمط الجملة، وطريقة تكوينها. فالتعجب له شكله من الناحية الصوتية، ولونه الموسيقي الذي يتطلبه (إنّ لأسلوب التعجب نمطا خاصا من التنغيم ينفرد به ولا يمكن فهمه أو استيعابه على وجه الصحيح إلا بتحقيق نطقا وأداء).17

فالتعجب لا يقتصر على المضمون، وإنّما التأثير الذي يحدثه في المستمع، وبعث الإحساس المناسب للموقف من خلال متغيرات الأداء في إطار المقام التنغيبي للجملة.

كما شملت الأساليب مستويات أخرى وقف عدها القراء منها لام التأكيد وبعدها همزة الوصل عند قوله تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) النساء 83

فكلمة (لا تبعتم) رسمت بدون همزة وصل فعندما تحكّم التنغيم في نطق (لا) يرتفع الصوت، ويختفي المصوت الطويل الألف . ولكنّ في موضع آخر في القرآن يختلف الأمر فالصامت الطويل (الألف) يكتب بيد أنّ نطقه غير مجهور قال تعالى قال تعالى: (قال تعالى): (فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لِأَنَّ نَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) البقرة 256 فكلمة (لا انفصام) كتبت بالمصوت الطويل (الألف) وعند قوله تعالى: (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) البقرة67(قرأها حمزة بالوقف كأنه يعمل الضمة التي كانت على الزاي في الأصل). 18

وحذف الفاء كثير في القرآن، وذلك لأنّه جواب يستغني أوله عن آخره بالوقف. فالسكوت في هذه المواطن على الحذف الذي عوض الأداة مفهومة وعلامته بالنغمة. فقد لجأ القراء إلى الأداء الصوتي في هذا الموقع للحذف ليفسروا به المسائل المتعلقة بالأداة كالفاء والواو كقوله تعالى قال تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الزَّكَوُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) (التوبة 112) حذفت الواو في هذا السياق ، وقد توصلّ الفراء إلى قاعدة استثمارها من قراءته لهذه النصوص وتفسيره ما ارتبط بها من قضايا نحوية اقتضاها المنهج الصوتي (فاعرف بما جرى تفسير ما بقي، فإنه لا يأتي إلا على الذي أنبأك به من الفصول أو الكلام المكتفي يأتي له جواب). 19 فالفراء يتحرى الدقّة لينظّم تفسيره مستقرنا الآيات التي استوفت ظاهرة التنغيم، باحثا عن العلاقة المميزة بالنحو مستنبطاً بذوقه النسق الصوتي مظهرا للمعاني القرآنية المتأصلة. ومما ساعده على ذلك نظريته القويّة في ربط الآية بالأخرى كاشفا القيمة الصوتية للتركيب.

وحذفت النون في الفعل (أخذ) قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة 103 الأمر أوخذ لكتبا ثقيلة في النطق فجاء حذف الهمزة للخفة . أما التعليل الصوتي (فنجي بنجي) ، ثم دخلت على الفعل المضارع نون دلّت على الجماعة ، فأصبحت (ننجي) (فالتقت النونان المتحركتان في الفعل المضارع ، مشددة العين، فاستثقل اجتماعهما ، وهما متحركان فمالوا إلى التخفيف من هذا الثقل ، بحذف النون الثانية، طلبا للخفة ، والسهولة واليسر). 20

-حذف ياء المتكلم: حذفت الياء في الفعل و الاسم عند بعض القراء كحمزة والكسائي يغلب

التعليل النحوي على الصوتي كما استخلصه أهل اللغة و القراءة

ففي فعل الأمر قال تعالى: (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَخَشَوُا النَّاسَ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) المائدة44 بحذف الياء في (( اخشون) (قرأ ابن كثير و ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بحذف الياءين في الحاليين واخشون ولا... ) 21 لأنها وقعت في آخر الكلمة ونابت عنها الكسرة، كما أنّ الفعل إذا اتصلت به نون الوقاية حذفت الياء ، وهي شبيهة بحذفها في القافية الشعرية قصد التخفيف.



فالنظام اللغوي هو الذي يقرّر هذا الحذف، ويميل إليه الاستعمال (لا ينبغي لنا أن نفهم الحذف على معنى أنّ عنصرا كان موجودا في الكلام ثمّ حذف بعد وجوده ولكن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف ينبغي أن يكون هو الفارق بين مقررات النظام وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي).22

من الظواهر النحوية التي تصرف فيها النحاة وساقوا المنهج الصوتي لتفسيرها قوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنِينَ عِبَادًا غَاهِدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ] البقرة 177 فكلمة (الصابرين) وردت منصوبة لأتّها صفة على (من آمن) فنصب المعطوف على المرفوع. أمّا إذا قرئت بالرفع فهو العطف على (الموفون).

أمّا التفسير الصوتي لهذه المسألة الخاصة بالصفات في حالة النصب و الرفع فإنّ العرب على هذا المستوى كانت تغيّر النسق بصيغة جديدة في حالة تتابع الأصوات، فيحدث تغيّر صوتي يسير وفق النظام اللغوي لديهم. هذا يدلّ على اعتنائهم بالأصوات (هذا يوضح أنّ العرب تستخدم معالجة الصيغ المتابعة بإحداث تغيير صوتي يقاطع رتابة الأصوات إذا طالت على النسق واحد فإذا كان الاسم رفعا طالت له الصفات، نصبوا إحداها للتنبيه على المدح المجدد غير المتبع الأول الكلام. ويجري للذم أيضا وهو إجراء صوتي يتطلب تغييرا في درجة الصوت).23

أمّا أثر الصوت في العلامة الإعرابية فنجد النحاة أطلّوا البحث فيه، ودخلوا في جدال لضبط بعض الحالات الإعرابية وتأصيلها فعند قوله تعالى: (لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) النساء 162 (قرأ الجمهور كابن كثير والكسائي والمقيميين) بالنصب إضمار فعلى على تقديره، وأعني المقيميين الصلاة (على أنّ الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، وقيل هو العطف على ما أنزل على أنّ المراد بهم الأنبياء والملائكة)24. وقد يكون التقدير أمدح المقيميين.

كما لعب دورا في توجيه الإعراب، وتفسير صورته المختلفة لبعض الظواهر الصوتية، ويطلق عليه بالفواصل الصوتية. فعند قوله تعالى: (الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) البقرة 1. 2 (أولا: ذلك الكتاب: جملة مستقلة من مبتدأ وخبر. لا ريب: لا نافية للجنس - ريب اسمها منصوب والخبر محذوف تقديره موجود والجملة استئنافية مؤكدة.

فيه هدى للمتقين: خبر مقدم، والهدى: مبتدأ مؤخر. المتقين: متعلق بهدى. ثانيا: التركيب يختلف عن الأول. ذلك الكتاب: يبقى إعرابها ثابتا. لا ريب فيه: لا نافية للجنس واسمها وخبرها وهي إمّا مستأنفة للتأكيد، أو في محل رفع خبر ثان لاسم الإشارة ذلك. هدى للمتقين: هدى: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو

ثالثا: تكون من آيتين تختلفان عن القراءتين السابقتين، ويتجلى هذا الاختلاف في إعرابهما

ذلك الكتاب: لا ريب فيه. ذلك: مبتدأ و الكتاب بدل أو عطف بيان له، و ريب فيه من لا النافية للجنس و اسمها و خبرها في محل رفع المبتدأ و هو ذلك.

نلاحظ هنا اتصلاً صوتياً بين جزئي الآية (ذلك الكتاب) و (لا ريب) و ذلك - على هذا الاحتمال - لارتباط الكلام بعضه ببعض في المعنى و الإعراب معاً، و من هنا لم يجز لنا أن نضع النقطة (.) بين هذين الجزئين، لأنّ النقطة في وضعها الصحيح إنّما تدل على انتهاء الكلام. و تمام الكلام هنا ليس بأحد هذين الجزئين دون آخر و إنّما تمامهما كليهما. 25 هذه النماذج تدخل في إطار الصوتي، فهي تختلف و تتنوع بشكل واضح حسب النطق مما يؤدي إلى تغيير المعنى.

لقد كان أثر الإعجاز النحوي في صوت القرآن جلياً في أثناء المدونة اللغوية بشكل عام، و المدونة النحوية بوجه خاص، إذ نبّه النحاة إلى مسائل كثيرة قياسية أولوها اهتماماً، و حظيت بدراسة عميقة، فقد استثمروا نماذج هامة من القرآن الكريم، جاءت مبنوثة في كتب النحو و اللغة، لذا وقرؤا لهذه القضايا قواعد مقرّرة.

لم يكن للعرب دراية معمّقة بهذا التفاعل المنطقي بين النظام الصوتي و درس النحوي حتى جاء القرآن الكريم الذي طوّره و أوردته في سياق دقيق ضمن دائرة البيئة اللغوية المحيطة به. كما أبعد عنه الاضطراب و الزوال فوطّد النطق بها، و هدّب كيافها. و كان أثره عظيماً في ارتفاع شأنها، فتنبّه علماء اللغة إلى هذا التفاعل ليطوقوه بفصاحة الأسلوب القرآني، و يستخلصوا قواعدهم اللغوية بعد مدارس القرآن الكريم، و قد نجحوا في جمع المادة اللغوية منه لتذوب في مؤلفات التي صارت من أعظم المصادر التي يعتمد عليها في تأصيل العلاقة بين الصوت و النحو في بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كلّ علم.

### الهوامش:

1. مهدي مخزومي، قراءة في الكتاب، مجلة الكتاب العربي، 1986، ص 78، 15.
2. كمال بشر، علم الأصوات، ط 6 دار المعارف مصر 1986 ص 24
3. البقاعي (إبراهيم بن أبي بكر) تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، الدرر في تناسب السور و الآيات، دار الكتب العلمية بيروت، 1415 هـ،
4. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ط 2 مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده مصر 1958، ص 168
5. كاظم محمد البكاء، المنهج الصوتي للنحو العربي في معاني القرآن، مجلة المورد العدد 4 جامعة الكوفة العراق 1409 هـ، ص 101
6. تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة المغرب 1994، ص 50
7. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر القاهرة 1952 م، ص 179
8. تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ص 274
9. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط 3 مكتبة الأنجلو المصرية 1965 ص 86
10. سيويو (عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون ط 3 عالم الكتب بيروت، 1983،

م. 109/4.

11. ابن يعيش (ابن علي)، المفصل، تحقيق:عبد السلام هارون ط3عالم الكتب بيروت، 1983 م 54/9
12. تمام حسان، اللغة العربية مبناها ومعناها، ص185
13. نفس المرجع، ص 23
- 14- ابن عاشور(محمد الطاهر)، التحرير و التنوير، الدار التونسية 1984 م، 15/17
- 15- العكبري(أبو البقاء)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق:علي محمد البجاوي دار الجيل بيروت ط2، 734/2
- 16- أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي)، البحر المحيط، تحقيق:علي محمد البجاوي ط6 دار الجيل بيروت 695/2
- 17 .كمال بشر، علم الأصوات، ص546
- 18الزمخشري(أبو القاسم)،الكشاف،ط1 دار الفكر، 1403هـ/1447
19. الفراء(أبو زكرياء يحيى بن زياد) معاني القرآن، ط3 عالم الكتب بيروت 1983 م، 44/1
20. ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص ، تحقيق : علي النجار دار الكتاب العربي بيروت، 398/3
- 21-انظر عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات دار سعد الدين دمشق، 288/2
- 22-- تمام حسان.اللغة العربية معناها ومبناها.ص298
- 23- محمد كاظم البكاء.المنهج الصوتي للنحو العربي .مجلة المورد جامعة الكوفة العراق.العدد الرابع ص110
- 24-أبو حيان،، البحر المحيط، 159/1
- 25- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف مصر ط91986م، ص27-28.